المحاضرة الثامنة+ التاسعة : الآداب الاجتماعية للسلوك اللساني + التهذيب اللغوي

تمهيد: استخدام هذه اللغة محكوم بمجموعة من القواعد، وقواعد تتعلّق بتركيب اللغة نفسها، وأخرى ترتبط باستخدامها الفعلي وهي قواعد اجتماعية وضعية اتفاقية عادة ما تختلف من مجتمع إلى آخر.

1ـ في تحديد أطر آداب السلوك اللساني (Linguistique Etiquette): يحيل هذا المصطلح على ممارسة أي نشاط لساني منظّم في أي جماعة لغوية، بحيث ينظر إليه على أنّه مناسب للحدث التواصلي الحالي، أي أنّ الكلام واستخدام اللغة محكوم بمجموعة من الضوابط الاجتماعية الّتي حدّدها هذا المجتمع، والّتي تجعل منه كلامًا متأدبًا أو ما أطلق عليه في عرف اللسانيات الاجتماعية **التهذيب** في اللغة، وترد معطيات هذا السلوك اللغوي المهذّب بالنظر إلى المسارات والاستخدامات المألوفة للغة داخل المجموعات اللغوية، فهذه المجموعة هي الّتي تحدّد أبعاد وقواعد السلوك اللغوي المهذّب الّذي يصبح سلوكًا ملاحظًا وفعليًا، فقد تبلور على شكل مفاهيم ثقافية واجتماعية نواة.

2ـ المتغيرات المتحكمة في آداب السلوك اللساني:

أ- المواقع النسبية للمتحاورين في التراتبيات الاجتماعية: أي ما يسمى بالمسافة الاجتماعية للمتكلّمين وهو شعور الشخص بأنّ وضعه الاجتماعي مماثل لوضع شخص آخر أو مخالف له، وهناك ترابط عكسي بين هذا العامل وبين الالتزام بآداب التهذيب في التعامل مع المتلقي، فكلّما كانت المسافة الاجتماعية بين المتكلّم ومتلقيه كبيرة كلّما زاد التهذيب والعكس صحيح، فتأثير هذا المتغيّر الاجتماعي والنفسي بارز في هذا المجال ونمثّل له بامتثالنا لآداب السلوك اللغوي **المؤدّب** والمهذّب مع الغير الّذي لا تربطنا معه علاقات شخصية وحميمة، على عكس المتلقي حينما يكون صديقا مقرّبا أو فردًا من العائلة.

ب- معيار السن: فالتواصل مع الكهل أو الشيخ يفرض علينا أنماطًا لغوية مخصوصة تتصف بالاحترام والل بقة والتقدير، في حين نضطر إلى اللجوء إلى أساليب لغوية تتّسم بالرقة والليونة والبساطة أثناء تعاملنا مع فئة الأطفال.

جـ- معيار الجنس: أثبتت الدراسات الاجتماعية والنفسية، أنّ لغة الأنثى تختلف اختلافا ظاهرًا عن لغة الذكر، من حيث عدد المفردات المستخدمة وطبيعة الأصوات الموظّفة ودرجة الصوت وحدّته، وكذا من حيث تركيب الجملة وأنماطها، لذلك يعدّ معيار الجنس في السلوك اللغوي معيارًا فارقا في التأدّب اللغوي، فتنتقي ألفاظا لبقة ومتأنقة أثناء التعامل مع المرأة أو الأنثى تتناسب مع طبيعتها العاطفية والحالمة، فمثلًا في لغة **الياقا** في كاليفورنيا تحتوي على صيغ خاصة تستعملها النساء أو يتكلّم بها الرجال من مخاطبتهم النساء.

د- السياق: لسياق الخطاب تأثير على **التهذيب اللغوي**، ويكشف عن جزء كبير من الأدبيات في هذا السلوك مثلًا:

- الخطاب المؤسساتي يعني :قاعات المحكمة، الخطاب الطبي، المؤتمرات العلمية، الخطاب التعليمي... وتحكمه ضوابط صارمة في التعامل اللغوي.

- الخطاب الشخصي الحميمي: يقتضي التنازل عن كثير من هذه القواعد.

3- أبجديات الكلام: تعتمد درجة المهارة في الكلام على مجموعة من العوامل، وتتضمّن هذه العوامل معرفة القواعد الّتي تتحكم فيه، كما ترتبط بالسلوك المعياري الشائع في مجتمع من المجتمعات، وتتمثّل أساسا في:

1- الحجم الكمي للكلام: فهناك معايير خاصة بالتحكم في حجم الكلام الّذي يقوله الناس، وهذا الحجم الكمي قد يتراوح ما بين القليل والكثير، فهناك مجموعة من المجتمعات الّتي تفرض قيودًا صارمة في كمية الكلام، وتعدّها أساسًا للتأدب.

2- عدد المتكلّمين الّذين يسمح لهم بالكلام في الوقت نفسه في محادثة واحدة، فقد اتفقت أغلب المجموعات اللغوية على المبدأ القائل بأن يسمح لشخص واحد فقط بالكلام في وقت واحد بعينه، تجنّبا للفوضوية وامتثالًا لمبدأ الإنتاجية أو تحقيق هدف التواصل(الفهم والإفهام).

3- كما تتفق المجموعات اللغوية على مبدأ مهم في تحقيق التأدب اللغوي، من خلال فرض الصرامة في عدد مرات المقاطعة المسموح بها في أي محادثة جارية.

4- الالتزام بمبدأ التعاون الّذي تبناه غرايس، والّذي يتضمّن مجموعة من الشروط أهمّها أن يحمل ما يقوله المتكلّم قيمة إخبارية، ولا يتحقّق هذا الشرط إلّا إذا حدّد المتكلّم الشخص المستهدف بالخطاب بدقّة(فمثلا إذا أردت أن أخبرك أن أخوك ينتظرك في الخارج، فينبغي أن أقول أن أخوك ويجب تحديد اسمه إذا كنت أعرفه عوض استخدام عبارة فلانًا.

4-علاقة النفوذ الاجتماعي بالسلوك المتأدب: ففي كلّ لغة كلمات تعكس الخصائص الاجتماعية للمتكلّم أو المخاطب أو تعكس العلاقة بينهما. ومن أوضح علامات العلاقات الاجتماعية ذكر الأسماء الشخصية، فكلّ شخص يمكن أن يخاطب بأسماء مختلفة، فيخاطب بالاسم الأوّل، أو باسم العائلة، أو قد ينعت بالسيد أو الأستاذ ، والّذي يقرّر ما الاسم الّذي يخاطب به هو النفوذ وطبيعة العلاقة بينهما، فينادى الشخص باسمه حين يكون بين المتكلّم والمجتمع تواصل عال، ويكون نفوذ المستمع أقل من نفوذ المتكلّم، كأن يكون ابنًا له، أمّا استعمال العبارات الدالة على النعت فيلجأ إليها حينما يكون التواصل ضعيفا ونفوذ المستمع أعلى من نفوذ المتكلّم كأن يكون مديره أو رئيسه في العمل، ففي الفرنسية مثلًا الضميران Vous و Tu كلاهما يدلّ على "أنت" إلّا أن ضميرVous يستعمل مع البعيد الأعلى منزلة،وTu لمخاطبة القريب الأدنى.

أمّا في اللغة العربية، فقد كان العرب في جاهليتهم أكثر الشعوب ميلًا إلى المساواة بين الأفراد ، لذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد، ولم تبد في لغتهم مظاهر المبالغة والتبجيل، ولكنّهم لم يلبثوا أن انحرفوا عن مبادئهم، فانحرفت معهم أساليب لغتهم، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع تعظيمًا له مثل(أرجو أن تتفضّلوا) وطغت ألفاظ نحو سيادتك، حضرتك... وعرفت بعض التعابير الرسمية، مثل جلالة الملك وصاحب السمو، فضيلة القاضي، معالي الوزير، سماحة المفتي.

5- التلطف في الكلام(أهم أداءات السلوك اللغوي): يجعل أولمان من النطق وسيلة مقنعة وبارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه، وتعهد اللغة إلى استعمال هذه الوسيلة مع كلّ شيء مقدّس أو ذي خطر أو مثير للرعب أو الخوف.

وتنزع الجماعة العربية –مثلًا– في بعض الأحيان إلى استخدام حسن التعبير ليتلطّفوا في الحديث ويتأدّبوا في المشافهة، فلا يذكرون الشيء باسمه تجنّبا للكلمات الجارحة، ويعدلون عنها إلى ألفاظ مقبولة لا يفحش ذكرها في الأسماع بدافع الأدب والكياسة، لذلك قد يلجؤون إلى الكناية عنها كقولهم على البخيل: فلان لا يحلّ خناقه، وفلان لا يثمر شجره، أو كتعبيرهم عن الكاذب بقولهم: فلان منغمس في عيبه، أو قد يكنون عن الغبي بقولهم: فلان عريض الوساد وعريض القفا، ومن الطريف في هذا

الباب أنّ العرب تستعير كلمات أجنبية بدلًا من الكلمات العربية، وقد يكون ذلك من أساليب التلطّف كاستخدامهم لفظةW.C أو Toilette للإشارة إلى مكان قضاء الحاجة.

6ـ التابو أو المحظور والآداب اللسانية:

استخدمت كلمة Taboo لأوّل مرة في اللغات الأوروبية سنة 1777، بجزيرة تونكا ، والّتي كانت تعني عندهم المحرّمات أو المحظورات ذات العلاقة بالقوى الخفية ما وراء الطبيعة، واستعملها بعد ذلك الانثربولوجيا بمعنى المنع المستند إلى جزاء سحري أو ديني يؤدي خرقه إلى إنزال العقوبة عليه من القوى ما وراء الطبيعة.

أمّا علماء الاجتماع فقد حمّلوه مضمونًا اجتماعيا ودينيا، فدوركايم يعرفه بأنّه تحريم ديني مرتبط باحترام كلّ ما هو مقدّس.

ويتعلّق التابو أو المحظور حاليا بالسلوك الّذي يعتقد أنّه مخيف أو ممنوع، أو غير مقبول أو غير أخلاقي، وبعبارة أخرى يختص بالسلوك المحرّم الّذي لا يقبل إعلانه أو الحديث عنه بصراحة ووضوح.

وهذه بعض المجالات الّتي تضمّ كلمات محظورة.

أ-الدين: فمثلًا اسم الله في العبرية هو (يهوه) يكتب ولا ينطق، ويتم استبداله بلفظ آخر هو (أدوناي) بمعنى ربي ، وقد انتقل الحظر في هذا المجال إلى اللغات الأوروبية ففي الانجليزية تستخدم لفظة(Lord) بمعنى الله.

ب- الماورائيات: ففي بعض المجتمعات لا يجوز ذكر الشيطان أو العفاريت لما تتركه في نفس المتكلّم وسامعه من خوف ورهبة، فيكنى عنها بألفاظ متلطّفة كذكر البسملة والتعوّذ(المعوذتان) بديلا عنها في الثقافة العربية.

جـ- الموت: فقد لا يكون جزع الإنسان من القوى غير المرئية فقط، بل يرجع أيضا إلى الموت والمرض ولهذا فنادرًا ما يصرّح بألفاظ هما مباشرة، ففي اللغة العربية نقول فلان رحل، واستوفى أجله، وهب إلى جوار ربّه، كما تشير العرب إلى بعض الأمراض دون أن تسميتها صراحة مستعينة بالكناية كالسرطان والإيدز والسل...

د- الجنس: وتمثّل الكلمات ذات العلاقة بالجنس وأعضاء الجهاز التناسلي أكبر الكلمات المحرّمة في عديد الثقافات، وقد تنحو اللغات إلى التخلّص من الكلمات الخاصة بهذا المجال إلى كلمات أخفّ أثرًا منها، وقد كنى القرآن الكريم عن العملية الجنسية باستخدام كلمة الملامسة في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ لَامَسْتُمُ النِسَاءَ** ﴾وبلفظ المباشرة في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** ﴾.

خاتمة: تحمل اللغة طابع الحياة الاجتماعية الّتي يحياها المتكلّمون، بما يظهر فيها من اختلافات مفرداتية بين لغة وأخرى، وطرائق اتصالية تحقّق لهم منفعة التفاعل، فالإنسان كائن لغوي اجتماعي، تفصح لغته عن انتمائه الاجتماعي وخياراته اللغوية الّتي لابدّ أن تتقيّد بمجموعة من القواعد المضبوطة داخل الجماعة اللغوية الّتي تواضعتها وقنّنها.